الفصل الثاني
أخلاق الإمام سفيان الثوري

المبحث الأول: تواضعه:

كان خلق التواضع سجية من سجايا الإمام الثوري، فهو أمر تأصل في نفسه، حتى بات الباطن كالظاهر والظاهر كالباطن، فهو يشعر في قرارة نفسه بأنه أقل من أن يعلو على عباد الله، فعِلْمُه وما أحاطه به الناس من تقدير لنبوغه وفقهه وحديثه لم يجعله يوماً إلاأن يزداد تواضعاً واتهاماً لنفسه بقلة ما لديها، وذلك يتجلى في أقواله وأفعاله جميعاً.

فقد قال خلف بن تميم[١] سمعت سفيان الثوري بمكة وقد كثر الناس عليه فسمعته يقول: «ضاعت الأمة حين احتيج إلي»[٢].

ويروى أن إبراهيم بن أدهم أراد أن يختبر تواضع سفيان حيث أرسل إليه: «تعال حدثنا» فقيل له: «يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا». قال: «إنما أردت تواضعه»، قال: فجاء فحدثهم[٣].

وكان علي بن ثابت يقول: «ما رأيت الثوري في صدر مجلس قط، إنما كان يقعد إلى جنب الحائط ويجمع بين ركبتيه»[٤].

وقال خلف بن تميم: «سمعت سفيان الثوري يقول: لولا أن أُستَذَل لسكنت بين قوم لا يعرفونني»[٥].

---

(١) خلف بن تميم: الإمام، صحب إبراهيم بن أدهم. وحدّث عن الثوري. قال يحيى بن معين صدوق وعنده عن سفيان عشرة آلاف حديث. (سير أعلام النبلاء: ٢١٢/١٠).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٧٥/٧ .

(٣) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣٦٧/٦ .

(٤) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ٤٨/٧ .

(٥) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٦/٧ .

وقال أيضاً: سمعت سفيان الثوري يقول: «أصبت قلبي يصلح بين مكة والمدينة بين قوم غرباء أصحاب بيوت وعِباء»[١].

ولشدة تواضعه كان يكره أن يحاط ببطانة فحين شَخصَ إلى خراسان لحاجة عرضت له ولزيارة أقاربه أخفى ذلك عن أصحابه فبلغ يونس بن أبي يعقوب العبدي من بعض بطانته فتجهز للمضي معه وهو لا يشعر وتجهز بعض أصحابه بمثل ذلك فلما خرج خرج متخفياً فسبقوه إلى بغداد فلما وردها أخفى نفسه فخرجوا إلى حلوان معه وهو كاره[٢].

وقال يحيى بن اليمان: «كنت أرى سفيان مقنع الرأس يشتد في إثر جنازة العبد والأمة»[٣].

المبحث الثاني: زهده:

قيل التصوف براعة في المعارف وبلاغة في المخاوف.

وقد أجمع الناس على زهد الإمام الثوري[٤]. قال الذهبي: «قد كان سفيان رأساً في الزهد والتأله والخوف»[٥]، وكان يحيى بن معين لا يقدم على سفيان الثوري في زمانه أحداً في الزهد[٦] فكان مشهوراً به[٧] وقدوة في خشونة العيش[٨].

---

(١) المرجع نفسه: ٦/٧ .
(٢) تاريخ بغداد، للبغدادي: ١٥٢/٩-١٥٣ .
(٣) الجرح والتعديل، للرازي: ١٠٢/١ .
(٤) دائرة المعارف، للبستاني: ١٧٨/٩ .
(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٤١/٧ .
(٦) تاريخ بغداد، للبغدادي: ١٦٩/٩ .
(٧) دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٦٣١/٩ .
(٨) دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٦٣١/٩ .

اعتبره الصوفية من أئمتهم الأوائل وجعله أبو نصر السّراج في كتاب «اللُّمع» شاهداً على قدم الصوفية. وكان الإمام الثوري على صلات ودية بالزاهد شيبان الراعي (ت ١٥٨هـ) الذي عاش عيشة تعبد ونسك في لبنان[١].

وقد صنفه ابن النَّديم في الفن الخامس في أخبار السياح والزهاد والعباد والمتصوفة[٢].

أما الشيخ عبد الرؤوف المناوي فقد أدرجه في الطبقة الثانية من كتابه «الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية» حيث وصفه بأنه «زاهد الزهد أليفه»[٣].

إن الزهد عند الإمام الثوري لم يكن تركاً للدنيا وزينتها وإنما هو خوف من الله عز وجل، ومن عقابه وناره، وخوف من الموت. فقد كان يقول: «ازهد في الدنيا ونم»[٤].

وقيل لسفيان: «أيكون الرجل زاهداً ويكون له المال؟ قال: نعم إن كان إذا ابتلي صبر وإذا أُعطي شكر»[٥].

وكان يقول: «من كان في يده شيء من هذه الدراهم فليصلحه فإنه في زمان إن احتاج كان أول من يبذل دينه»[٦].

ومن الزهد عنده خوفه من الموت، فقد قال أبو نعيم[٧]: «كان سفيان إذا ذكر الموت مكث أياماً لا يُنتفع به فإذا سئل عن شيء قال: ما أدري ما أدري»[٨].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين، وجدي: ٤٥٤/٥-٤٥٥ .
(٢) الفهرست، لابن النديم: ٢٦٠ .
(٣) الكواكب الدرية، للمناوي: ٢١٢/١ .
(٤) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣٨٧/٦ .
(٥) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣٨٧/٦ .
(٦) وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣٨٩/٢ .
(٧) أبو نعيم: الفضل بن دكين الحافظ الكبير شيخ الإسلام الفضل بن عمر بن حماد بن زهير بن درهم التيمي. (سير أعلام النبلاء: ١٤٢/١٠).
(٨) تقدمة الجرح والتعديل، للرازي: ٨٤ .

ومن أقوال الثوري في الزهد: أن جاءه رجل فقال: أوصني، فقال: «اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها واعمل للآخرة بقدر دوامك فيها والسلام»[١].

وقال أيضاً: «ما شبّهتُ خروج المؤمن من الدنيا إلى الآخرة إلا مثل خروج الصبي من بطن أمه، من ذلك الغم إلى روح الدنيا»[٢].

وقال أيضاً: «أفضل الأعمال الزهد في الدنيا»[٣].

وقال: «من أحب الدنيا وسُرّ بها نزع خوف الآخرة من قلبه»[٤].

وكان الثوري يتمثل هذه الأبيات:

أظريفٌ إن العيش كدرٌ صفوُه ... ذِكرُ المنيةِ والقبورِ الهوّلِ

دنيا تداولَها العبادُ ذميمةً ... شيبَتْ بأكرهَ من نقيعِ الحنظلِ

وبناتُ دهرٍ لا تزال ملحةً ... ولها فجائعَ مثلُ وقعِ الجَندلِ[٥]

وكان يعجب ممن يحب الدنيا، قال مرة: «أف لها، ما أكثر كدرها، عجباً لمن يحبها»[٦].

وكان يتمثل هذه الأبيات أيضاً:

أرى رجالاً بدونِ الدّينِ قد قَنِعوا ... وليسَ في عيشِهم يرضونَ بالدُّونِ

فاستغنِ بالدِّين عن دنيا الملوكِ كما اس ... تغنى الملوك بدنياهُم عن الدِّينِ[٧]

---

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٢/٣٨٧ .
(٢) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٧/١٩ .
(٣) تقدمة الجرح والتعديل، للرازي: ٩٣ .
(٤) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٧/٧٩ .
(٥) المرجع السابق: ٦/٣٧٣ .
(٦) المرجع السابق: ٦/٣٧٥ .
(٧) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٦/٣٧٦ .

وكان يرى أن الزهد بقصر الأمل وليس بالخشونة في العيش حيث كان يقول: «الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العبا»[١].

وثمرة الزهد عنه الحكمة والبصيرة حيث يقول: «إذا زهد العبد في الدنيا أنبت الله الحكمة في قلبه، وأطلق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا وداءها ودواءها»[٢].

وأول الزهد زهدك في نفسك: «الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وأول الزهد في الناس زهدك في نفسك»[٣]، فهو يبتعد عن مجالس الحكام ولا يفرّق بين الأغنياء والفقراء، بل إن الفقراء عنده مقربون. قال قبيصة: «ما رأيت الأغنياء أذل منهم في مجلس سفيان الثوري ولا الفقراء أعز منسهم في مجلس سفيان الثوري»[٤].

والزهد زهدان: زهد فريضة وزهد نافلة فالفرض أن تدع الفخر والكبر والعلو والرياء والسمعة والتزين للناس، وأما زهد النافلة فأن تدع ما أعطاك الله من الحلال، إذا تركت شيئاً من ذلك صار فريضة عليك ألا تتركه إلا لله[٥].

وكان سفيان الثوري يرى أن الزهد هو البعد عن الحكم والمنزلة فحين سئل عن الزهد قال: سقوط المنزلة[٦]. ويقول أيضاً: «ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم «والمشرب» والمال والثياب، فإن نوزع الرئاسة حامى عليها وعادى»[٧].

---

(١) المرجع السابق: ٣٨٦/٦ .
(٢) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣٨٩/٦ .
(٣) المرجع السابق: ٦٩/٧ .
(٤) المرجع السابق: ٣٦٥/٦ .
(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٤٣/٧ .
(٦) المرجع السابق: ٢٥٩/٧ .
(٧) المرجع السابق: ٢٦٢/٧ .

وإن العلم لا يصلح إلا بالزهد عند الإمام الثوري فهو يقول: «إن القراءة لا تصلح إلا بالزهد، فازهد ونم وصلِ الخمس»[1].

وكان الثوري داعياً إلى الزهد: «عليك بالزهد يبصّرك عورات الدنيا»[2]. وكتب إلى رجل واعظاً: «عافانا الله وإياك من السوء كله، يا أخي! إن الدنيا غمها لا يفنى، وفرحها لا يدوم، وفكرها لاينقضي، فاعمل لنفسك حتى تنجو ولا تتوان فتعطب والسلام»[3].

المبحث الثالث: نهيه عن المنكر:

اختار الإمام الثوري لنفسه أن يكون من تلك الفئة من الناس الذين أمرهم الله تعالى أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر فقد قال جلّ وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[4].

ولا سيما أن الثوري لاحظ تراجع الأمة الإسلامية بعد أن بَعُدَ عصر النبوة والراشدين فقد بدأ الناس بارتكاب ما نُهوا عنه، والانخراط في الملاهي، والبعد عن نهج الإسلام في كل مناحي الحياة بعد أن بدأ التدخل الأجنبي في صفوف العرب المسلمين.

لذلك انتهج الإمام الثوري منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى قال عنه شجاع ابن الوليد[5]: «كنت أمشي مع سفيان فلا يكاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[6].

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، للرازي: ٩٣ .
(٢) حلية الأولياء، للأصفهاني: ١٩/٧ .
(٣) المرجع السابق: ٥/٧ .
(٤) آل عمران: ١٠٤ .
(٥) شجاع بن الوليد: ابن قيس الإمام المحدِّث العابد الصادق كان إماماً ربانياً من العلماء العاملين وحديثه في دواوين الإسلام. (سير أعلام النبلاء: ٣٥٣/٩).
(٦) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٣٧ .

وقال سفيان: «مُرْ بالمعروف في رفق فإن قُبل منك حمدت الله عز وجل، وإلا أقبلت على نفسك فإن لك في نفسك شغلاً، وكان الناس إذا التقوا انتفعوا بعضهم ببعض، فأما اليوم فالنجاه في تركهم». وقال يحيى بن اليمان: لقيت سفيان عند بني فزارة فقال: تدري من أين جئت؟ قلت: لا. قال: مررت بدار الصيدنانيين فنهيتهم عن بيع الداذي»[1][2].

لقد اختلط واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدم الإمام الثوري حتى صار طبيعة فيه يتأثر جسده حين يتركه فهو يقول عن نفسه: «إني لأرى المنكر فلا أتكلم فأبول دماً»[3]. إنه لا يترك فرصة ينهى فيها عن المنكر ويأمر بالمعروف إلا اغتنمها: «ليكن جليسك من يزهدك في الدنيا ويرغبك في الآخرة.. عليك بالزهد يبصّرك عورات الدنيا، وعليك بالورع يخفف الله حسابك، وامر بالمعروف وانه عن المنكر تكن حبيب الله»[4].

وكان لا يفتر عن أمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر، قال عنه يحيى بن عبد الملك ابن أبي غيّة: «ما رأيت أحداً أصفق وجهاً في ذات الله من سفيان الثوري»[5]. دخل سفيان على المهدي فكلّمه بكلام فيه غلظة، فقال له عيسى بن موسى[6]: «تُكلِّم أمير المؤمنين بمثل هذا الكلام وإنما أنت رجل من ثور. فقال له سفيان: إن من أطاع الله من ثور خير ممن عصى الله من قومك»[7].

---

(١) الداذي: حب يوضع الرطل منه في فرق من الماء فيكون مسكراً.
(٢) الجرح والتعديل، للرازي: ١٠٥/١ .
(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٥٩/٧ .
(٤) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٨٣/٧ .
(٥) المرجع السابق: ١٣/٧ .
(٦) عيسى بن موسى ابن إسحاق عمرو بن عبد الله الإمام القدوة الحافظ الحجة. (سير أعلام النبلاء: ٤٨٩/٨).
(٧) وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣٨٨/٢ .

ولعل أفضل مثال على جرأة الإمام سفيان الثوري في الحق وعدم خوفه في الله لومة لائم، تصويره ما آل إليه أمر المسلمين من تراجع وتقهقر في دينهم وأحوالهم، ونهيه عن المنكر الذي اعتبره سبب انهيار أمة الإسلام فهو عدوها الحقيقي وليس عدوها العدو المادي الذي يشهر السلاح لمقاتلتها، كل ذلك في كتابه إلى عباد بن عباد[1] الذي قال فيه:

«أما بعد: فإنك في زمان كان أصحاب النبي ﷺ يتعوذون أن يدركوه، ولهم من العلم ما ليس لنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم، وقلة صبر، وقلة أعوان على الخير، وفساد بين الناس، وكدر من الدنيا؟ فعليك بالأمر الأول والتمسك به، وعليك بالخمول فإن هذا زمن خمول، وعليك بالعُزلة وقلة مخالطة الناس، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذاك، والنجاة في تركهم فيما نرى، وإياك والأمراء أن تدنو منهم وتخالطهم في شيء من الأشياء، وإياك أن تخدع ويقال لك تشفع وتدرأ عن مظلوم، أو ترد مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنما اتخذها فجّار القراء سُلماً، وكان يقال اتقوا فتنة العابد الجاهل، والعالِم الفاجر، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، وما لقيتَ من المسألة والفتيا فاغتنم ذلك ولا تنافسهم فيه، وإياك أن تكون كمن يحب أن يعمل بقوله، أو ينشر قوله، أو يسمع من قوله، فإذا ترك ذاك منه عرف فيه، وإياك وحب الرياسة فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقّد نفسك واعمل بنية، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت، والسلام»[2].

---

(١) عباد بن عباد: ابن حبيب بن الأمير المهلب بن أبي صفرة الأزدي الحافظ الثقة. (سير أعلام النبلاء: ٨/٢٩٤).

(٢) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٦/٣٧٦ .

وكان الإمام الثوري يقول:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولا قيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا[1]

المبحث الرابع: شعوره بالمسؤولية:

لقد كان شعور الإمام الثوري بالمسؤولية شعوراً عالياً حتى إنه كثيراً ما كان يقول: «اللهم سلّم سلّم»[2].

لقد كان يشعر بمسؤولية كبيرة تجاه ولده لما توجب عليه من الترحال لطلب الحديث ولما فرضته عليه الظروف من حياة التشرد التي كان يحياها فلذلك تراه دائم التمني بعدم وجود الولد وكان دائم التمني لموت ولده[3].

وكان يشعر بمسؤولية كبيرة تجاه العلم الذي تعلّمه والحديث الذي يحمله في صدره، كان يتخوف على نفسه من العلم أن لا يسلم منه فكان يقول: «وددت أني نجوت من هذا العلم كفافاً لا لي ولا علي»[4]. ويقول: «لو لم أعلم كان أقل لحزني»[5]. ويقول أيضاً: «ما من عملي شيء أنا أخوف منه من هذا - يعني الحديث»[6].

---

(١) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣٧٢/٦ .

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٣٧١/٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٥٣/٧ .

(٤) الجرح والتعديل، للرازي: ٦١/١ .

(٥) الجرح والتعديل، للرازي: ٦٢/١ .

(٦) الجرح والتعديل، للرازي: ٦٢/١ .

وكان يشعر بمسؤولية كبيرة تجاه المنعم الذي أنعم عليه بالنعم الكثيرة؛ إنه يجد أن ما أنعم الله عليه من طعام وشراب يوجب عليه شكر تلك النعم فتجده يتعبد طوال الليل حيث يروى أن سفياناً أكل ليلة فشبع فقال: «الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله فقام حتى أصبح»[١]. وحدّث ابن عيينة، قال: دعانا سفيان فقدّم إلينا غداء ولبناً خاثراً، فلما توسطنا قال: «قوموا بنا نصلي ركعتين شكراً لله تعالى؛ قال ابن وكيع ـ وكان حاضراً ـ: لو قدم إلينا شيئاً من هذا اللوزينج المحدَّث لقال: قوموا بنا نصلّي التراويح»[٢].

وكان يشعر بمسؤولية تجاه العباد ويخشى الله في تعامله معهم فيترك الحلال خشية الوقوع في الحرام: روي أنه جاء سفيان الثوري إلى صيرفي بمكة يشتري منه دراهم بدينار، فأعطاه الدينار، وكان معه آخر فسقط من سفيان، فطلبه فإذا إلى جانبه دينار آخر، فقال له الصيرفي، خذ دينارك. قال: ما أعرفه. قال: خذ الناقص، قال: فلعله الزائد، وتركه ومضى[٣].

وقال عبد الله بن داود الخُريبي[٤]: «سمعت سفيان الثوري يقول: إذا اشتريت شيئاً لا ترد أن تنيل جارك منه فواره»[٥].

وقال البلخي[٦]: أهديت لسفيان الثوري ثوباً فرده علي، قلت: يا أبا عبد الله! لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده علي. قال: علمت أنك ليس ممن يسمع الحديث، ولكن أخوك يسمع مني الحديث، فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره[٧].

---

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣٨٦/٢ .
(٢) المرجع السابق
(٣) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣٨٧/٦ .
(٤) عبد الله بن داود الخريبي: الحافظ القدوة الإمام. (سير أعلام النبلاء: ٣٤٦/٩).
(٥) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٦٦/٧ .
(٦) البلخي: الإمام الكبير حافظ بلخ أبو علي عبد الله بن محمد بن علي البلخي جمع وصنف كتاب العلل وكتاب التاريخ عظمة الحالم وفخمه. وقال الخطيب كان أحد أئمة الحديث حفظاً وإتقاناً وثقة وإكثاراً له تصانيف. (سير أعلام النبلاء: ٥٢٩/١٣).
(٧) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٣٠ .

وقال مبارك بن سعيد: «جاء رجل إلى سفيان ببدرة ـ أو ببدرتين[1] ـ وكان أبو ذاك صديقاً لسفيان. قال الرجل: وكان سفيان يأتيه كثيراً، قال: فقال له: يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك، كان وكان فأثنى عليه، قال فقال: يا أبا عبد الله! قد عرفت كيف صار إلي هذا المال، فأنا أحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك. قال: فقبل سفيان ذلك وقام الرجل، فلما كاد أن يخرج قال لي: يا مبارك! الحقه فرده علي فقال: يا ابن أخي أحب أن تأخذ هذا المال. قال له: يا أبا عبد الله في نفسك منه شيء؟ قال: لا. ولكن أحب أن تأخذه. فما زال به حتى أخذه فذهب به. قال: فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت: ويلك أي شيء قلبك هذا حجارة، عُدّ أن ليس لك عيال أما ترحمني، أما ترحم إخوتك، أما ترحم عيالنا وعيالك؟. قال فأكثرت عليه. فقال: الله يا مبارك! تأكلها هنيئاً مريئاً وأسأل أنا عنها»[2].

وشعوره بالمسؤولية جعله يعمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال عبد الرحمن بن مصعب: «كان رجل أعمى يجالس سفيان فكان إذا كان شهر رمضان خرج إلى السواد فيصلي بالناس فيبكي ويُوهَب له. فقال سفيان: إذا كان يوم القيامة أثيب أهل القرآن من قراءتهم ويقال لمثل هذا: قد تعجّلت ثوابك. فقال له الرجل: يا أبا عبد الله، تقول هذا وأنا جليس لك؟ قال: إني أتخوف أن يقال لي يوم القيامة، إنه كان جليساً لك أفلا نصحته»[3].

وشعوره بالمسؤولية أيضاً جعله يوصي إلى عمار بن سيف في إحراق كتبه[4].

---

(١) قال في مختار الصحاح: البدرة عشرة آلاف درهم.
(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٣٠ .
(٣) تقدمة الجرح والتعديل، للرازي: ٩٩ .
(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٤٢/٧ .

وشعوره بالمسؤولية هذا وخوفه من الله ومن يوم الآخرة جعله يبول دماً[1]، ويخشى الله كثيراً فقد قال: «لقد خفت الله خوفاً، عجباً لي كيف لا أموت لكن لي أجل أنا بالغه، ولقد خفت الله خوفاً وددت أنه خفف عني ما أخاف أن يذهب عقلي»[2]. ويقول أيضاً: «إني لأضع يدي على رأسي من الليل إذا سمعت صيحة فأقول قد جاءنا العذاب»[3].

وقد قال عنه عبد الرحمن بن المهدي: «ما عاشرت من الناس رجلاً أرق من سفيان، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة فما كان ينام إلا أول الليل ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ينادي: النار، النار شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات. ثم يتوضأ ويقول على إثر وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلَّم، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار. إلهي إن الجزع قد أرَّقني وذلك من نعمك السابغة علي. إلهي لو كان لي عذر في التخلي ما أقمت مع الناس طرفة عين. ثم يقبل على صلاته، وكان البكاء يمنعه من القراءة حتى إن كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكائه، وما كنت أقدر أن أنظر إليه استحياء وهيبة منه»[4].

ومن الأخلاق التي اتصف بها الإمام الثوري الورع فقد أجمع العلماء على ورعه، فقد قيل لفضيل بين عياض في بعض ما كان يذهب إليه من الورع: «من إمامك في هذا؟ قال: سفيان الثوري[5]». وقال ابن المهدي: «يزعمون أن سفيان كان يشرب النبيذ؛ أشهد لقد وُصف له دواء فقلت: نأتيك بنبيذ؟ فقال: لا، ائتني بعسل وماء[6]». وقال أبو رجاء قتيبة: «لولا الثوري لمات الورع[7]».

ومن صفاته المزاح والضحك. قال قبيصة: كان سفيان مزّاحاً كنت أتأخر خلفه مخافة أن يحيرني بمزاحه. وعن عيسى بن محمد: «أن سفيان كان يضحك حتى يستلقي ويمد رجليه[8]».

---

(١) المرجع السابق.
(٢) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ١٤٨/٣ .
(٣) المرجع السابق.
(٤) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ١٤٩/٣ .
(٥) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣/٧ .
(٦) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٧٥/٧ .
(٧) تاريخ بغداد، للبغدادي: ١٦٢/٩ .
(٨) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٧٥/٧ .